

العفة والقيامة

"وحاءت إليه امرأة... ومنذ ذلك الوقت أخذ يهودا يتحين الفرصة لتسليمه"

تصنع الكنيسة يوم الأربعاء العظيم المقدّس تذكّاراً للمرأة الزانية التي دهنت الربّ بالطيب. سمعنا في التراتيل والنصّ الإنجيليّ قصّة هذه المرأة. بينما كان المسيح في بيت أحد الفريسيّين المتديّنين، تدخل فجأة امرأة ساقطة - بنظر الجميع - امرأة زانية، وتسكب طيباً على يسوع؛ تنحني أمامه بشعرها، أي بمجدها، وتمسح قدميه. فتساءل التلاميذُ، والسؤال حقّ: لماذا لا يباع هذا الطيب ويعطى للمساكين؟ كيف قيل يسوع أن يُفاض عليه الطيب بدل أن تعطى قيمته للمساكين؟ إنّ هذا السؤال الحقيقيّ يحتاج إلى جواب. وينتهي النصّ الإنجيليّ بأنّ يهودا أحد التلاميذ خرج ليقايض اليهود: "ماذا تعطوني وأنا أسلم سيّدي ومعلّمي؟"

هذا الحدث يحمل في سرّه مسألة تمسّ الحياة في العمق، إنّ حدث طلاق وزواج، إنّنا أمام عرس تدخل إليه الزانية ويخرج منه التلميذ. إنّنا أمام عرس ليس مع العريس الأرضيّ، ولكن مع العريس السماويّ. لذلك كلّ التراتيل التي سمعناها تقارن بين يهودا وبين هذه المرأة التائبة التي كانت زانية. دخلت هذه المرأة إلى العرس وخرج التلميذ إلى الطلاق.

كتاب التكوين يجيب على السؤال "لماذا خلّقنا؟" الكلمة الأولى من كتاب أعمال الله (التكوين) تقول: "في البدء خلق الله...". ولماذا خلق الله؟ كلّنا نعرف قصّة التكوين والخروج والعهد القديم، كم ضحى الله وكيف دخل في التاريخ، وكم تأرجح الإنسان بين حبّ وزنى، بين وفاء مع العهد لله وبين خيانة. لذلك سمعنا مرّات عديدة أشعيا النبي وهوشع النبي يسمّيان شعبهما في العهد القديم بالشعب الزاني، لأنّهم أحبّوا غير الله، ولأنّهم أحبّوا أصناماً بينما كان الله قد اتخذهم كعروس له.

لماذا خلّقنا الله؟ يتابع الكتاب المقدّس إلى آخر كلمة من كلمات سفر الرؤيا، حيث تقول الآية: "إنّ العروس والروح يخاطبان ويناديان العريس تعال". إنّ العروس، وهي كلّ نفسٍ بشريّة، مع الروح القدس، بالروح القدس، تنادي إلى الربّ يسوع المسيح: تعال. هذا هو هدف الخلق، هذا هو هدف كلّ إنسان منّا جاء إلى الحياة. الزواج أو البتولية هذان أمران سيّان، لا يهّمّ المسيح إنّ تزوجنا أم تبتلنا، ما يهّمّ المسيح هو أنّنا إن تزوجنا فلنكفّر بتجدد الزوجة والأولاد معه - إنّّه هو العريس الحقيقيّ؛ وإن تبتلنا فلننحدّ أيضاً معه في العرس

السماويّ. المسيحيّ، أو الإنسان كائناً من كان، جاء إلى الوجود لينمو من طفل إلى عروس حقة، نظيفة، طاهرة للمسيح. يمكننا أن نتحد بالمسيح السماويّ سواء شئنا ذلك في زواج أم في بتولية. كلّ شيء في الحياة هو طريق، لكن العرس واحد لكلّ إنسان. أن نتحد بالربّ يسوع هو غاية الخليقة، فهذه إذن غاية كلّ إنسان منّا. لهذا نتأمّل يوم الأربعاء العظيم، ونحن قادمون إلى حدث الفصح المجيد، نتأمّل في هذا العرس.

ما هو الفصح؟ أن نقوم من حياة زنى تجاه الله إلى حياة عفة، من حياة خيانة إلى حياة توبة، من حياة قطيعة كيهودا إلى حياة عودة كهذه المرأة التي تابت إلى المسيح. الجميل في هذا النصّ، أنّ هذه المرأة استخدمت، من أجل اتّحادها بالمسيح وحبّها له، الأمور ذاتها التي كانت تستخدمها من أجل محبّات أخرى: لقد انحنت بشعرها، ومسحت قدميه بالطيب. هذه الأدوات التي كانت تستخدمها للزنى استخدمتها ذاتها من أجل الزواج الحقيقيّ، من أجل العرس السماويّ.

نعم، إنّ الله عندما يريد أن يتحد بنا لا يطلب منّا أن نترك العالم، ولا أن نترك الواجبات ولا المال ولا الأولاد، فكلّ هذه وسائل نزني بها عندما نستخدمها من أجل غير المسيح، ونكون أنقياء وطاهرين فيها حين نستخدمها من أجله.

تزوجتَ من أجل المسيح؟ فأنت عفيف. تبتلتَ من أجل ذاتك؟ فأنت زانٍ. زنى الإنسان أو طهارته تحدّد الغايات التي يقصدها من وراء أعماله واختياراته في الحياة، هذه تحدد إن كان في زنى أم في عفة. الزواج طاهر عندما يكون من أجل المسيح، والبتولية غير طاهرة إذا لم تكن من أجل المسيح.

أنت متعلّم؟ أنت زانٍ حين تستخدم العلم لغايات خاصّة، أنت متعلم من أجل المسيح، أو من أجل الإنسان، من أجل المحبّة ومن أجل الخدمة، بكلمة أخرى من أجل العطاء؟ عندها تكون عفيفاً. استخدمت العلم من أجل ذاتك؟ فأنت زانٍ أناني، وأنت مستهلكٌ ولستَ مستخدماً. كلّ شيء في الحياة طاهر. لم يعطِ الله شيئاً نجساً ولكنّ الاستخدام البشريّ السيّئ يفسد هذه الطهارة في الأمور. لذلك تقول التريثية التي سمعناها، إنّ في الوقت الذي كانت فيه الخاطئة تقدّم الطيب، كان التلميذ يشارط مخالفه الناموس. تلك مدّت شعرها لتمسح القدمين، وذلك مدّ يده ليأخذ الدراهم، تلك انعتقت وصارت عروساً للمسيح وذلك صار عبداً رديئاً. فعظيمة هي التوبة ووديء هو التهاون.

إنّ التوبة تحمل تعباً، والتضحية والعطاء يتطلّبان مجهوداً، فعظيم هو التعب من أجل الإنسان ومن أجل الآخر. العفة دربنا إلى القيامة. أتعاب العفة هذه محبوبة لأنّها طريقنا إلى الفصح. ودربنا هذه نسلكها بالتوبة.

عظيمة هي التوبة ووديء هو التهاون.

أمين